

## خمس سنوات في مصر

الوهية التي أتى بها الإنسان ليضع هذه الفروق ويكون ذلك التقسيم في الحقيقة إلا وحدة واحدة لا تتجزأ ولا ينفصل بعضها عن بعض فما الحاضر إلا امتداد للماضي وما المستقبل إلا امتداد للحاضر وما الماضي والحاضر والمستقبل إلا سلسلة واحدة لا تعرف لها بداية أو نهاية — على أن هذا لا دخل له في موضوعنا ولا صلة ، فلنهمل ذلك ولنحصر تفكيرنا في هذه السنوات الخمس . . خمس سنوات كاملة !! إنها في الحقيقة فترة طويلة إذا ما قيسَت إلى عمر الإنسان ؛ وأيام شبابه على الخصوص — وأنا لا أحاول طبعاً أن أقيسها إلى عمري فإن هذا غيب عند الله — ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن أتصورها كذلك إلا إذا وضعت أمام مخيلتي طفلاً قد بلغ من العمر خمس سنوات فهو يركض ويتكلم ويدرك . . حينئذ فقط أصل إلى إدراك الحقيقة المرة بأن هذه فترة عظيمة حقاً ، فتتملكني رهبة وهيبة أمام هذه الحقيقة المائلة . . وأنسى نفسي وأنسى ما حولي وأعيش في عالم الماضي أستعير أيامه أمام خاطري وأستعرض حوادثه فيبدو لي بعضها غامضاً غير واضح المعالم يظهر ثم لا يلبث أن يختفي عن مخيلتي وإذا هو في عالم النسيان .. ويظهر لي بعضها بشكل أوضح وهياة أجلى لأن تأثيرها على فيما يبدو كان عظيماً فلم تستطع يد الزمان أن تمتد إليها بالقضاء والنسيان . . . وتفقر في ذهني إلى هذه اللحظة بالذات إحدى هذه الذكريات وتحتل المكان الأول من تفكيرى وتطرد كل ما عداها من ذكريات وينشغل بها بالي فلا ألتفت إلى غيرها ، ولا أعجب في ذلك فهي تتعلق بمسئلي . . . وكنت حينئذ في السنة الثالثة الثانوية وقد دخل في روعي أن أهيم نفسي منذ تلك اللحظة إلى الالتحاق بكلية الطب ولكنني — وسأقولها بصراحة — كنت متأثراً بما يدور حولي من آراء . . ( ولم

ليس من السهل على الإنسان دائماً أن يبعث في نفسه ذكريات قديمة قد اندثرت أو كادت ، وزالت وقدرتها وحرارتها . . . وهذه حقيقة كلما تقدم الزمن بالذكرى أو اتسعت بينهما الثغرة كان تأثيرها على النفس أضعف وأوهى . وكلما كانت المدة أقصر والثغرة أصغر ، كان الأثر أقوى مفعولاً وأشد بروزاً . . أقول هذا حينما أجرد نفسي من أثر الحاضر وأعيش في الماضي — وإن كنت في نفس الوقت لا أتهدى إلى وجود فواصل حقيقية بين ما يسمى بالماضي والحاضر والمستقبل ؛ فما هذه الرموز

ما قولك في الرحمن على العرش استوى ؟ فأجابها جواب الإمام مالك المشهور وهو الاستواء غير مجهول . والكيف غير معقول . والإيمان به واجب . والسؤال عنه بدعة ، فسأله على الفور عن رأيه في محمد بن عبد الوهاب فقال : إن الذين يأتوننا من الرياض يثنون عليه كثيراً . على أن الكوييتيين لا يكرهون هذا الإمام مطلقاً . ولكنهم غير متعصبين له ولدعوته والشيخ يرى فيه رأى قومه لأكثر . .

ورحل بعدهم الشيخ الشاب أحمد بن الشيخ خالد العدساني . ارتحل بصحبة الشيخ يوسف بن عيسى . مد الله في حياته . إلى الأحساء فقرأ هناك . ورحل إلى بومباي الهند . فأتقن فن إصلاح الساعات . وأثار ذكاؤه إعجاب الكوييتيين هناك فعملوا على تفسيره إلى مصر فسافر من الهند سنة ١٣٢٤ هـ قاصداً مصر ومكث فيها مدة غير أنه لم تعجبه النظم التعليمية التي كانت سائدة في دور العلم هناك فترك راجعاً من مصر إلى الحجاز . ودرس عند أحد الشيوخ ليزيد تحصيله غير أنه لم يلبث أن أصابه ألم ببطنه اضطره إلى السفر إلى أهله . فارتحل وهو مريض يعانى آلام البطن فوافته المنون بعد وصوله بيوم واحد رحمه الله . وكان ذلك حوالى سنة ١٣٢٦ هـ

يكن من ذلك عن رغبة صادقة أو ميل طبيعي فإنني لا أنحمل رؤية مريض فكيف أقف نفسي على العلاج والتطبيب ! ) بأن المستقبل للطب ، وهم في الغالب يقصدون بذلك - المادة - بيننا هنالك ما هو أهم مما يتعلق بالميل الأصلية نفسها أو بالمستقبل أو السعادة التي يجنونها من وراء اختياراتهم في مستقبل الأيام . وقد اقتنعت فعلاً بفكرتهم وأخذت بها ؛ ولكن ما إن برزت الحقيقة أمامي سافرة حتى أذعنت لها واستسلمت مختاراً طائعاً . . . كنت أحدث نفسي : « هل أنت حقيقة تعنى ما تريد وهل تحب أن تحترف مهنة الطب في مستقبل الأيام وهل ستخلص لهذه المهنة لو كان الأمر كذلك ؟ . تكلم بصراحة فإنك أمام نفسك وإذا جاز لك أن تغالط غيرك وتخدعه فإنك لا تستطيع أن تكذب على نفسك وتغالطها بأى حال من الأحوال . . . ثم إن المسألة أخطر مما تتصور فهي تتعلق بمستقبلك الذي تدب عليه سعادتك وتكون شخصيتك ، وهذا أمر يخصك أنت وحدك . . . فهل جاد أنت فيما تنوى أو أن هناك أسباباً أخرى أغرتك . . . وأنت بعد مخير فيما تختار مادامت صادقا فيما تروم مخدماً فيما تنوى . . . ولكن يخيل لي أن الأمر بالعكس ، والرأى رأيك أولاً وأخيراً فالنظر ماذا ترى . . . وأعترف بأنني شعرت بالإحراج أمام هذه الحجة القوية ، ولم أستطع أن أنكر أن الباعث الوحيد الذي تأثرت به هو المادة دون أى باعث آخر سواه وقلت لنفسى :

إنك يا هذا مخدوع فلم تسعد المادة في يوم من الأيام على وجه البسيطة مخلوقاً وإن كان الإنسان يصر بالرغم من ذلك في أن يعتبرها السبيل الوحيد المؤدى إلى السعادة الحقة . . . وإذا كان هذا هو كل ما تتمناه في حياتك فعلاً فإن الأمر أسهل مما تظن فقم من ساعتك وأرح نفسك من مشقة الدرس وتعب التحصيل واتبع الوسائل الناجعة التي أتبعها غيرك في جمع المال والتوصل إلى الثراء فلست بأقل منهم ذكاً ولا دهاءً أو حسن تدبير . . . أو غش وخذع وراوغ وتملق وافعل كل ما يمد لك سبيل الغنى والاثراء إذا كنت حقاً تعنى ما تقول . . . ولم يتحمل ضميري كل هذا التوبيخ طبعاً فعدلت عن عزمي ورضخت لرغبتى وميولى الطبيعية وأمرى لله ! . . .

وما انتهى الحديث إلى نفسى إلى هذا الحد حتى أعود إلى التفكير مرة أخرى في هذه السنوات الخمس التي فانت من عمرى وليس إلى عودتها من سبيل فيتمثل لي شبحها هائلاً كالعلاق خيفاً كإررد من الجن وإذا بحسرة صارخة يرن صدها بين الضلوع تقطع على سبيل التفكير وتغير مجراه . . . هذه الحسرة المكتومة كثيراً ما تعاودنى بين وقت وآخر وتمسك بتلابيب ضميرى تناقشنى الحساب وتزن أعمالي الساقطة بميزانها الدقيق فإذا - وبالأأسف - كفة الفشل دائماً راجحة وكفة النجاح شائلة فيتعكر صفوى وينطفئ بارق الأمل . . . ولسكنها مع ذلك تلح على وتعيرنى وتهمنى بالتقصير والإهمال فأحس بشعور ثقيل ولسكنى لا أستطيع التخلص منه على أى حال . . . هل قتت بمهمتى في هذه الحياة على خير الوجود وهل حققت بعضاً من كثير من الآمال التي منيت بها نفسى وكانت طيورها تحوم حول رأسى تبشرنى بالمستقبل الباسم الموعود؟ كلما استعرضت هذه الخواطر في رأسى أبحث عن الحل الشافى الذى قد أحسن فيه بعضاً من الراحة القلبية ، كانت النتيجة مخيبة وكان الجواب واحداً لا يتغير « كلا . كلا . . . » حتى أصبح عندى يقيناً ثابتاً بأن هذا الجواب البغيض سيبقى على هذه الصورة إلى أبد الآبدين ولا أمل أن يكون - في يوم من الأيام - كما أحب أن يكون « أجل . أجل . . » ، وترجئنى هذه الأفكار السوداء وتبلبل خاطرى فأصحو من غفوتى وأخلص من كابوس الماضى الخيف وأعود إلى الحاضر مرة أخرى ، فأطل من النافذة لا تأمل الطبيعة وأخفف من حدة عواطفى وجيشان نفسى ، وأنظر إلى الدنيا فإذا هى مظلمة كثيفة وإذا السماء ملبدة بغيوم داكنة كثيفة تمنع عنى زرقعتها وصفاءها كما يحجب ( المستقبل ) عنى أحواله وحوادثه . . . وما تدور هذه السكمة ( المستقبل ) في خاطرى حتى تهاجنى جيوش التكهنات والتخمينات ، ولسكنى لا أحب أن أذكر عنها شيئاً . . . ومهما يكن من أمر فإن الأمر بيد الله والله رؤوف بالعباد .

على نكربا الانصارى